

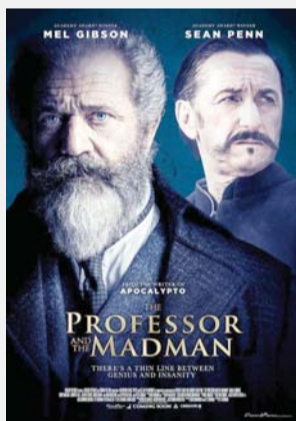
«البروفيسور والمجنون» مطاردة الحزن والحب والجريمة

باحث مغمور يصنع معجزة لغوية وطبيب جراح ينقلب جنونه إلى حب



المجرم المجنون الذي ساهم في صناعة قاموس أوكسفورد

إنني أستطيع ... ولكن بسبب أنت لقد أتيت أول مرة لكي أكرهك فجيبيها، أرجوك استمري بكري، يا ليتك تستمري بكري. صراع ذاتي مرير يتراجع فيه ماينور ويبقى زنزانته التي كانت تزدهم باللوحات والكتب إلى فراغ حزين بينما في الجهة الأخرى يكون زميله البروفيسور قد تعرض إلى حملة شرسة باتهامه بأنه أنجز القاموس بالتعاون مع قاتل ومجرم وهو الطبيب الجراح الأمريكي ماينور في محاكمة لا يستسلم فيها البروفيسور بسهولة ويدافع عن زميله بضراوة حتى ينتصر له ويبتزع اعترافا بفضله في إنجاز القاموس. لا شك أن هذا الفيلم محمل بكثافة أسلوبية عالية وتم نحت عناصر فنية وإبداعية فيه بشكل متقن وفي مقدمتها الحوار الكثيف والعميق والمؤثر والمحمل بالكثير من المشاعر والقيم الإنسانية وبخاصة حوار طبقة المفكرين والعلماء من جامعة أوكسفورد أو الحوار بين ماينور والبروفيسور.



الممثل البارع شين بين هنا في واحد من أرفع أدواره على الإطلاق بل هو سيد هذا الفيلم بلا منازع، الشخصية التي تصارع نفسها والأشباح وتقاوم حبا قلب الموازين

هنالك في المقابل تعبيرية عالية لجهة نسج العلاقة الإنسانية المتجردة وفيه الكثير من محاكاة الذات وفيه حس إنساني عميق ومؤثر. إن تكفي تلك الوصفة القاسية المتجردة من الأنانية التي وقفها ماينور قائلاً، لقد انتزعتها منه مرتين، مرة عندما قتلته ومرة أخرى عندما أحببتي، لكنه سوف يحزم على نفسه هذا الحب لكي لا يقتل الضحية مرتين عندما يقدم على قطع عضوه الذكري وهو في الزنزانة. على صعيد البناء المكاني هنالك بناء متميز للنسيج المكاني وارتباطه بالشخصية، فطبيعة أحداث الفيلم تطلب بكل تأكيد التصوير في أماكن حقيقية ومنها أجواء جامعة أوكسفورد ومنها أيضاً الشوارع القديمة لما يفترض أنه لندن لكننا في الواقع في إيرلندا حيث تم تصوير الفيلم، وفي كل الأحوال تم توظيف عنصر الصورة وعمقها ودلالاتها والتصوير والمونتاج في تقديم تنوع بصري متميز مع الحفاظ على إحساس بالحياة الكلاسيكية التي طبعت تلك الحقبة. سوف نشاهد شين بين في عدة مشاهد مؤثرة قبل أن يتم الحكم عليه ويلقى في زنزانته المعتمة، وهي مشاهد المطاردة قبيل ارتكاب جريمة القتل ثم مشاهد نزوله إلى القاع باتجاه المحاكمة، وهي مشاهد تم تصويرها بطريقة إضائية واطئة وإعتماد ملحوظ مع عرج الطبيب الجراح وحالته المتخبطة ثم تضاف إلى ذلك أوقات الحياة الجديدة بدقائقتها المعودة التي جمعته مع إيليزا وكانت غالباً حديقة السجن ووسط الطبيعة.



صاحب وعنيف وإذا به يتصاغر أمامها ويشعر بالذل، مطاطاً الرأس، خافضاً البصر، عاجزاً عن الكلام ثم لتتكرر زيارة إيليزا (المثلة ناتالي دورمر) ثم لتهديه كتاباً ثم ليكتشف أنها لا تقرأ أصلاً ثم ليخبرها بأنه بصدد مقايضة مريضة بعدما أزهق روحاً واضعاً حياة أخرى بين يديها، هي حياته وهي كل ما لديه.

رسم وحب وكلمات

هي لحظة عاصفة تكشف عن جرح إنساني عميق، إذ كيف للقاتل أن يصبح معذباً مقتول الروح، خيالات الحرب وصور القتل لا تفارقه ولا تتحلمها روحه، ثم تضاف لها محنة تلك المرأة وأطفالها، صرخات تنل صرخات تكاد تسمعها، فيما ماينور يدور في زنزانته المعتمة وهو يرسم نصف وجهها هارباً أو محاولاً الهرب من أثمائه. ولعل الملفت للنظر هنا، أن كلما استغرق ماينور مع عالم الكلمات والبحث وكلمها شعر بوجود إيليزا نابضاً، صار يعبر بطريقة أخرى، يقول: "عندما أقرأ لا أشعر أن شخصاً يلاحقني عندما أقرأ أنا من يطارده المطاردة".

هاهو وقد انتعشت أماله في الحياة، الزنزانة وقد صارت غاية من القطع الورقية التي تحمل معلومات لقاموس أوكسفورد التي تزيده عندما يتلقى البروفيسور، طبيبه المعالج يقول إنه يتطور، ووضعته النفسي والعقلي يتحسن مع استمرار ذلك الحوار مع إيليزا ورضاهما عنه حتى يتزوج ذلك بجلبها أولادها لزيارته عندما يتلقى الصفة من الابنة الكبرى كير، صفة مصحوبة بكلمة قاتل، سوف توظف كل عذاباته من جديد وتعيد سيرتها الأولى.

لا شك أن الممثل البارع شين بين هنا في واحد من أرفع أدواره على الإطلاق بل هو سيد هذا الفيلم بلا منازع، الشخصية التي تصارع نفسها والأشباح وتقاوم حبا قلب الموازين. تكتب له وهي تتجهج الحروف "إن لم يكن حياً.. فماذا يمكن أن يكون؟". هي قصاصة ورق عليه الاحتفاظ بها حتى نهابها ثم يمكنه أن يفتحها ويقرأها.

ثم ليصرح في حزن صديقه البروفيسور، إن قلبي مريض، ويعيد ما قالته إيليزا، أتذكر أنني كنت بامان وساكنة وأتذكر أنني كنت أعرف من أنا، ثم استيقظت فجأة وكان كل هذا قد زال. لقد كرهت لك وقت طويل لكنني الآن صرت أعرف من أنت وأعرف أن ما حصل قد أصابك أنت أيضاً

الهولندية إلى البرتغالية فالإسبانية والروسية وصولاً إلى العبرية والسريانية وحتى العربية. عندها يسند مجلس حكماء جامعة أوكسفورد المهمة له لتأليف القاموس في زمن يمتد ما بين 5 و7 سنوات، ولأن المساعدين العاملين معه محدودو العدد يلجأ إلى مخاطبة كل مهتم باللغة الإنجليزية من المتحدثين بها إلى الانضمام إلى المشروع الطموح، لتقع تلك الرسالة بالصدفة بين يدي الطبيب الجراح السجن فيقرر الانضمام إلى فريق القاموس، ويبدأ بتزويد البروفيسور بمئات الاشتقاقات اللغوية التي تذهل البروفيسور وفريقه وتوسع فعلياً في إصدار الجزء الأول من المعجم. لم يكن ماينور بذلك الإتهام بالرسم والبحث اللغوي ساكناً وراضياً، بل إن صراعه مع نفسه لم يهدأ قط، وتلك هي النقطة الجوهرية في بناء شخصية ماينور العصامية الانفعالية، وتكون أول خطوة للتطهير والتسامح مع الذات هي الطلب إلى أرملة القتيل الذي أجهز عليه أن تتسلم راتبه التقاعدي لكي تعيش منه إلا أن الزوجة ترفض ذلك وفاء لذكرى زوجها، لكنها ما تلبث أن تستسلم للأمر الواقع عاجزة وتقبل المال ثم تقرر مقابلة قاتل زوجها للمرة الأولى في سجنه.

يتم رسم ذلك المشهد الأول للقاء بعناية فائقة ومنه تتدلج شرارة الشجن والجرح الإنساني العميق، ماينور الذي في ذهنها هو قاتل متجبر وهو نفسه



الضابط الطبيب المجنون وصاحبه البروفيسور

إن الذات البشرية مثقلة بالتناقضات التي تتجاوز بطريقة عجيبة في داخل كل فرد، ولو بتفاوت. قد نجد الكراهية والشر يتجاوزان مع الطيبة والحب في شخص واحد، متناقضات تلتقي ما بينها لتصنع فرادة الإنسان، وتلتقي فكرة الشر المطلق أو الخير المطلق أو بالأحرى عدم القدرة على التغيير. ولعل أشد ما ينحت التناقض بشكل مرضي هو الصراعات والعنف والحروب، حيث يخرج من الذات أضعف ما فيها، ولكن يبقى الجوهر الداخلي ولو كنقطة صغيرة قادرة على إحداث الفرق.



تاهر علوان
كاتب عراقي

"إن لم يكن حياً.. فماذا يمكن أن يكون؟"

لا تتوقع في هذه الدراما القاسية والتراجيديا المريرة أن تخرج من وسطها بزهرة حب، كما تخرج زهرة يانعة من أرض قاحلة.

الدراما القاسية هذه تبدأ من سيرة ضابط جراح في الجيش الأمريكي إبان الحرب الأهلية، وكما في جميع الحروب هنالك الأزمة العاصفة التي تعرف بما بعد الصدمة حيث تتغلغل ذكريات الحرب القاسية إلى وعي ولا وعي من شارك فيها وخرج منها.

بل إن هنالك ما هو أبعد من ذلك بتحولها إلى متلازمة تؤدي بصاحبها إلى أعراض قسامية أو إلى الجنون وصولاً إلى الانتحار، وتلك هي حقيقة علمية لا خلاف عليها والدليل هو المنتحرون من المشاركين في حربي الخليج.

إذ، الحرب واحدة، ولو كان ضحاياها مختلفين.

ملاحقة شبح

بالطبع لن نشاهد في فيلم «البروفيسور والمجنون» الكثير من مشاهد تلك الحرب الأهلية الأمريكية التي شارك فيها الطبيب الجراح وليام ماينور (الممثل شين بين) لكنك تستطيع التوصل إلى آثارها، إلى صرخات الجنود الجرحى، إلى وجوه وعيون القتلى الجاحظة، إلى ضحاياها ونيرانها وفجيعتها.

هذا الفيلم محمل بكثافة أسلوبية عالية وتم نحت عناصر فنية وإبداعية فيه بشكل متقن وفي مقدمتها الحوار

وها هو ماينور ملاحق بأشباحها، يشهر مسدسه لمطاردة الشبح في مدينته الأمريكية في مشاهد مصنوعة بعناية حتى يعثر على الشبح الذي يقول وليام إنه يطارده، ولهذا يجدها فرصة سانحة للاقتصاص منه وبالفعل يصيبه بالرصاص الأولى بينما الرجل يستغيث بزوجه لتفتح له باب المنزل لعل في ذلك إنقاذاً له، لكنه سوف يتلقى الرصاص